شاعر و جارية
حين صار الحبُّ قصيدةً تمشي على الأرض

رمضان مصطفى سليمان

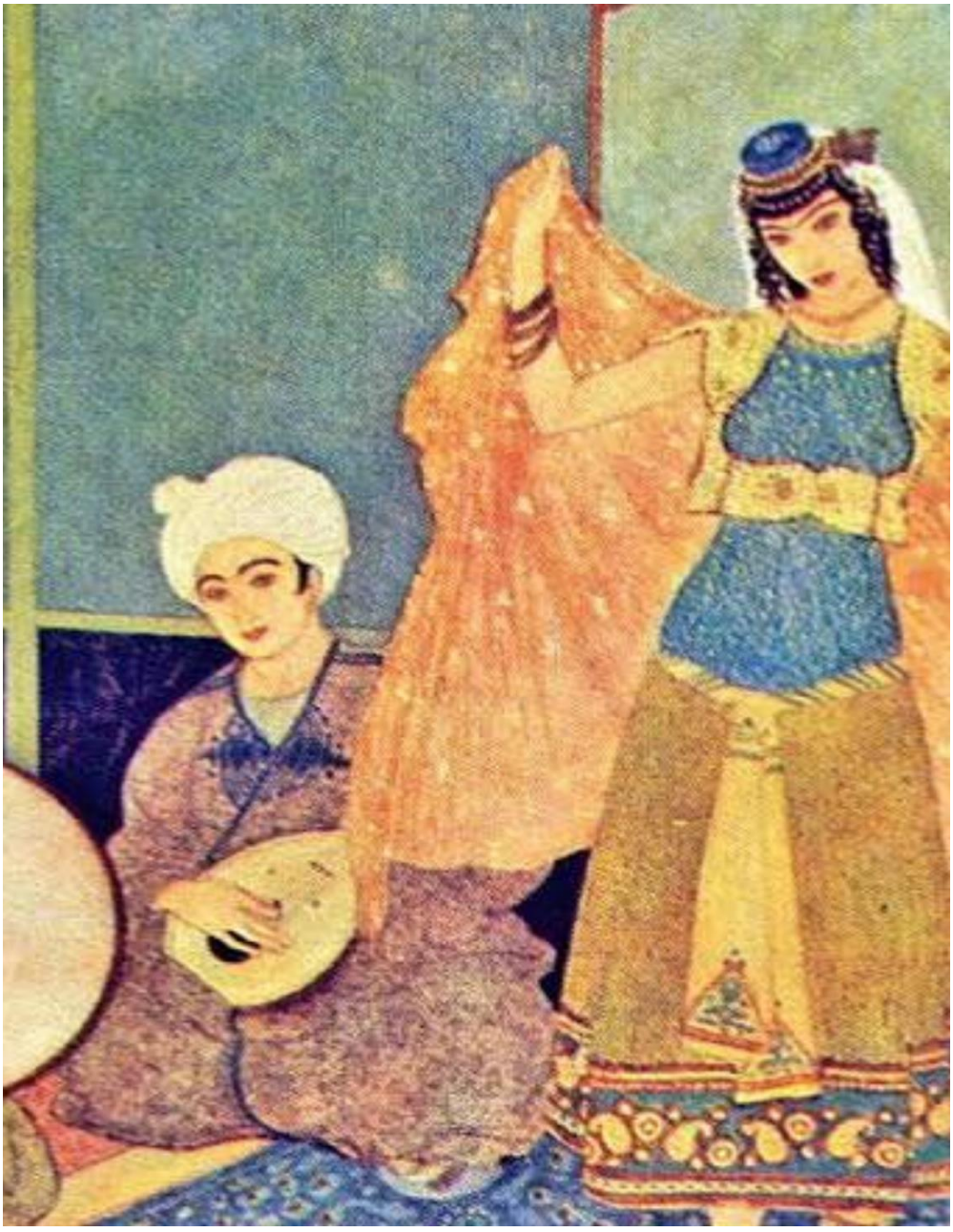

في زمنٍ كانت بغدادُ فيه تتوشّح بالضياء والفتنة، وتتجاور في أزقّتها الحكمةُ والهوى، وتختلط في مجالسها خُطا العلماء بضحكات الظرفاء، عاش أبو نواس، ذلك الشاعر الذي لم يكن يرى الدنيا إلا بعينٍ تلتقط اللمعة الخاطفة في الشيء، ثم تحوّلها نارًا في القلب وبيتًا في الشعر. كان رجلًا إذا أحبّ لم يحبّ نصفًا، وإذا اشتعل لم يعرف الاعتدال، كأن في دمه نهرًا من المعنى وفي روحه بابًا مفتوحًا على الجنون الجميل.

لم يكن الحب عنده خبرًا عابرًا من أخبار العاشقين، ولا نزوةً تذروها الأيام، بل كان قدرًا أدبيًّا يتشكّل في صدره كما تتشكّل القصيدة من أول رعشةٍ إلى آخر انكسار. وكان كل من عرفه يدرك أن هذا الرجل لا يُقيم في قلبه إلا ما استحال شعرًا، ولا يطمئن إلى الجمال إلا إذا مسّ جرحه العميق.

وفي أحد الأيام ، شاءت المصادفة أن تقع عيناه على **جنان،** وهي جاريةٌ ذات حسنٍ متّقد، ولكن حسنها لم يكن من ذلك النوع الذي يكتفي بإغواء البصر، بل كان جمالًا ينهض معه العقل ويصفو له السمع. كانت ذكيةً يقظة، تحفظ من الأشعار ما لا تحفظه بعض الصدور، وتلتقط من الحديث نكهته، ومن المجالس روحها. إذا تكلمت بدا كلامها كأنه صيغ من رصانةٍ رشيقة، وإذا سكتت ارتفع صمتها دلالةً لا تقل أثرًا عن الكلام. كانت فاتنة الصورة، ولكن الأشد فتنةً فيها ذلك البريق الداخلي الذي يجعل المرأة أكثر من هيئة، وأكثر من ملامح، وأكثر من خبرٍ عابر في مجلس.

رآها عند مولاها **الوهاب،** فاستقرت صورتها في نفسه كما تستقر الشرارة في هشيمٍ يابس. لم يقل في نفسه: هذه امرأة جميلة فحسب، بل قال، وهو يشعر أن شيئًا ما قد انكسر وانفتح في آنٍ واحد: هذه بداية فصلٍ لا يشبه ما قبله. ومنذ تلك اللحظة لم يعد أبو نواس الرجل نفسه؛ صار يذكر جنان في يقظته، ويتخفف إلى اسمها في خلوته، ويغزل من صورتها خيوطًا من الشعر قبل أن يغزل من قلبه صبرًا أو نسيانًا.

كان إذا جلس إلى الندماء بدا شاردًا ، يبتسم ابتسامةً لا تكتمل، كأن في أعماقه بابًا مواربًا لا يعرف أحدٌ ما وراءه. يسألونه عن سبب السهو فيجيبهم بحديثٍ متكلف، ثم يفرّ من أعينهم إلى وحدته، حيث لا يراه أحد وهو يفتش عن ظلها في كل شيء: في رائحة المجلس، في اضطراب

الستائر، في انكسار الضوء على الكؤوس، في الأغنية التي تمرّ به خفيفةً ثم تجرحه من حيث لا يدري.

كيف دخلتِ إلى هذا القلب ؟

كان يسأل نفسه في صمتٍ طويل.

أهي المصادفة، أم أن في الروح مواعيد سرّية لا نعلمها حتى تقع؟
ثم يجيبها جوابًا يقطع عليه سكونه :

لا، ليست مصادفة. إن لكل قلبٍ بابًا، وقد وجدتُ بابي مفتوحًا على هيئتك.

وذات يومٍ جاءه الخبر أن جنان قد عزمت على الحج. وما إن سمع العبارة حتى اضطرب داخله اضطراب البحر إذا هبّت عليه ريحٌ من جهةٍ بعيدة. لم يكن قد عزم على الحج أصلًا، لكن مجرد أنها ستسير إلى هناك، إلى البيت العتيق، كان كافيًا لأن يحوّل رغبته إلى ضرورة، ولهفته إلى مسير.

قال، وقد نهض فيه الشوق نهضةً كاملة:

إني على إثرها أحجّ.

لم يكن يقصد العبادة وحدها، ولا القرب وحده، بل كان في صدره ما يشبه الاعتراف المغلّف بالتقوى. أراد أن يكون في الطريق إلى الله، وفي الوقت نفسه في الطريق إليها. أراد أن يطارد أثرها بقدمين مرتجفتين، وأن يختبئ خلف نيةٍ كريمة من لهفةٍ لا تجرؤ على تسمية نفسها.

فسافر. وسبق الركب أحيانًا، وتباطأ أحيانًا أخرى، كأن قلبه لا يريد الوصول قبل أن يتأكد أن المسافة بينه وبينها ستظل قابلةً للرجاء. وكان كلما اقترب من موضعٍ قد تمرّ به، خُيّل إليه أنها هناك، وأن الهواء حين يمرّ به قد لامس ثوبها، وأن الرمال التي تحت قدميه حفظت وقع خطاها قبله.

لكن جنان ، على الرغم من قربها الجغرافي، بقيت بعيدةً على نحوٍ أشدّ من البعد. كانت تتحجب عنه، تلوذ بالصمت، وتمارس من الغياب ما يجعل حضوره نفسه نوعًا من الألم. لا هي ألقت إليه نظرةً تواسيه، ولا هي فتحت له بابًا صغيرًا يُطلّ منه على قلبها. كان يراها فلا يستطيع إليها سبيلًا،

ويعرف أنها هناك، وكأنها تجلس في الجهة الأخرى من القدر، لا من المجلس فحسب.

عندئذٍ التفّ حزنه على لسانه شعرًا، لأن الشاعر إذا عجز عن الوصول، صنع من العجز قصيدة. وقال :

أفنيتُ عمري في التماسِ وصالِها والوصلُ منها، يا فؤادي، عسيرُ

أمشي إليها والسبيلُ كأنّه بحرٌ، وحولي من تعثّرِه صخورُ

لما أعيتني الحيلُ، قُلتُ: لعلّها في الحجّ، يجمعنا المسيرُ الكثيرُ

كانت الأبيات لا تكتفي بوصف ما يشعر به، بل تكشف تلك المأساة الصغيرة التي يعيشها كل عاشق : أن يحبّ من لا يملك إليه سبيلًا واضحًا، وأن يظلّ بين الرجاء والإحباط، بين الاقتراب والحرمان، كمن يقف أمام نافذةٍ مضاءةٍ ولا يملك أن يطرقها.

ولم يكتفِ أبو نواس بالشعر، بل كتب إليها رسالةً يتخفّى فيها العشق في ثوب الدعاء، ويستعير فيها لغة المناجاة لكي يموّه حرقة القلب. كانت الرسالة شديدة التبجيل ظاهرًا، ولكن باطنها مغموسًا في الشوق. كأن الشاعر حين يكتب إلى محبوبته لا يستطيع أن يفصل بين الاسم الذي يرفعه إلى السماء، والوجه الذي يجرّه إلى الأرض.

بلغت الرسالة جنان، فقرأت ما كُتب فيها، ثم سكتت. لم تجبه، ولم تكتب ردًّا، وفضّلت أن تترك بينهما مساحةً من صمتٍ يشتدّ فيه السؤال. وكان صمتها، في نظره، أشدَّ وقعًا من جوابٍ قاسٍ. لأن الكلمة، مهما كانت جارحة، تعترف بوجود المخاطَب؛ أما الصمت فيجعله معلقًا في الهواء، لا يعرف أهو مرئي أم منسيّ.

ومرت الأيام، وأخذ الحبّ يتقلّب في قلبه بين رجاءٍ يلين ويأسٍ يقسو، حتى جاء يومٌ شهد فيه عرسًا بجوار داره، فإذا بجنان تدخل المجلس في زينةٍ هادئةٍ تُشبه العروس، أو تكاد. وما إن وقعت عينه عليها حتى انفتح فيه دهشٌ قديم. لم يتكلم في اللحظة الأولى، بل التقط منها صورةً واحدةً ثم أعادها الشعر في داخله ألف مرة. وبدافع الارتجال الذي لا يملكه إلا شاعرٌ مأخوذ، قال :

شهدتُ لها من الجمالِ جلوةً فمالتْ لها الأبصارُ وهي حيارى

حسبوا العروسَ إذا بدتْ في رونقٍ

فصارتْ إليها الدارُ، لا العرسَ، دارى

كانت تلك اللحظة من أكثر لحظات الحبّ قسوةً؛ لأنه رأى محبوبته متلألئةً في مجلسٍ ليس مجلسه، ومحاطةً بعيونٍ ليست عينه، وكأن الجمال الذي ظنّه خاصًّا به قد خرج إلى الناس جميعًا. وهنا بدأ قلبه يختبر المعنى المرير للحب: أن تحبّ شيئًا فاتنًا، ثم تكتشف أن فتنة الجمال لا تعرف الملكية.

ثم حدث ما هو أشدّ مرارة: وقع بينهما عتابٌ من كلمةٍ لم يحسن هو تقديرها، فغضبت جنان. كان العتاب في ذاته عابرًا، لكنه في الحبّ ليس عابرًا أبدًا؛ لأن الكلام حين يخرج من فم المحبوب لا يكون مجرد كلام، بل يظلّ في القلب متحوّلًا إلى حكمٍ أو جرحٍ أو رجاءٍ مكسور. حاول أن يعتذر، وبعث إليها رسولًا يحمل منه تواضعًا صادقًا، لكن الرد جاء باردًا حاسمًا، كأنه سِكّينٌ ماضية في ثوبٍ حريري:

لا برح الهجرانُ ربعَك، ولا بلغتَ أملك ممّن أحببتك.

لم يكن يعلم ما قالته حرفيًّا إلا حين لاحظ انكسار الرسول وارتباكه. عندها أدرك أن الرد لم يكن هينًا، وأن بينه وبين جنان الآن مسافةً من الغضب لا يفتحها إلا الصدق. فجلس وحده، واستحال داخله إلى سؤالٍ طويل:

أهذا جزاء ما أكنّه لها ؟

أهذا كل ما يصنعه الحبّ حين يخطئ الخطأ الصغير ؟

أيعقل أن يتحول القلب، بكل ما فيه من رجاء، إلى ساحةٍ للقطيعة ؟

ثم أطرق ، وأخذ يحدّث نفسه بنبرةٍ وجوديةٍ متعبة :

ما الحبّ؟ أهو انبهارٌ نمرّ به ثم ينقضي، أم أنه امتحانٌ للروح، يكشف ما فيها من ضعفٍ وما فيها من وفاء ؟

ولماذا يطلب القلب دائمًا ما يعجز عنه؟ ولماذا يطارد الإنسان ما يعرف، منذ البداية، أن الوصول إليه ليس سهلًا ؟

ثم أجاب نفسه كما لو أنه يخاطب زمنًا لا شخصًا :

لأن الإنسان لا يعيش بالسهولة، بل بما يتركه العسر في داخله من أثر.

وفي تلك الفترة اشتدت غربته على نفسه، لا على جنان وحدها. فقد صار يشعر أن قلبه قد صار ساحةً تتنازعها صورتها وصمته، وأن كل ما حوله يتآمر على تذكيره بها. لم تعد الأنهار أنهارًا، ولا المجالس مجالس، ولا الليل ليلًا؛ كل شيء كان يمرّ عليه وهو يجرّ اسمها جرًّا خفيًّا. وكان كلما حاول أن يشغل نفسه عنها وجدها أوضح في ذاكرته، كأن المنع يزيد المعنى لمعانًا، وكأن البعد يربي الشوق بدل أن يقتله.

ثم جاء يومٌ آخر، حين رقّت جنان شيئًا فشيئًا. لا أحد يعرف على وجه الدقة ماذا كان في قلبها، لكن القلوب العظيمة كثيرًا ما تشتدّ ثم تلين، خصوصًا إذا أحسّت أن خلف الاندفاع الأول إنسانًا لا لعبةً، ووجعًا لا ترفًا. لعلها رأت في اعتذاره صدقًا لم تستطع مقاومته، ولعلها سمعت في صمته ما لم تقله الكلمات. فمالت روحها إلى الهدوء، وانفتح فيها شيءٌ من الصفح.

وعندئذٍ أنشدها أبياتًا جديدة، لم تكن كأبيات الوجد الأولى، بل كانت أرقّ وأكثر نضجًا، كأن الشوق نفسه تعلّم من الألم كيف يتكلم بأدبٍ أكبر:

جنانُ، إن جُدتِ بالوصلِ الذي أرجوهُ لم يبقَ في الأفقِ دمعٌ لا يُدارُ

وإن أبيتِ، فإني لن أُكابرَ في جرحي، فكم علّمَتني النارُ، والنارُ

علقتُ قلبًا على معنىً يداهمُني فصار في داخلي للوجدِ تيّارُ

ولو نظرتِ إلى حجرٍ لأذْهلهُ من سحرِ طبعِكِ، ما بالي أنا، والدارُ؟

كان شعره، في تلك المرحلة، قد تجاوز مجرد التغنّي بالفتنة إلى التأمل في أثرها. لم يعد يتحدث عن الجمال وحده، بل عن الإنسان الذي يتغير تحت ضوء الحبّ، وعن الشاعر الذي يكتشف، في كل خيبة، أنه أضعف مما ظنّ، وأصدق مما أراد أن يبدو.

ومع ذلك، لم يكن الحب بينهما حبًّا سهل المآل. فقد ظلت جنان متحفّظة، وظل أبو نواس مائلًا إلى الإفراط في الشعور، وكلما اقترب أحدهما من الآخر عاد الفارق القديم ينبض من جديد. فالمرأة التي تعرف قدر نفسها لا تهب قلبها عبثًا، والرجل الذي يكتب الحبّ شعرًا لا ينجو من

نار خياله إلا قليلًا. وهكذا عاشا في منطقةٍ وسطى بين الوصال والصدّ، بين اللمحة والغفلة، بين ما يُقال وما لا يُقال.

لكن النهاية، على قسوتها، لم تكن هزيمةً كاملة. لقد فهم أبو نواس أخيرًا أن الحب ليس دائمًا امتلاكًا، ولا العشق وعدًا بالنيل، بل هو أحيانًا مدرسةٌ للروح، يخرج منها الإنسان أخفَّ على الدنيا، وأكثر معرفةً بنفسه. فقد تعلّم أن الجمال ليس غنيمة، وأن الشوق ليس دليل ضعف، وأن القلب حين يختبر الحرمان يصبح أعمق مما كان.

أما جنان، فقد بقيت في ذاكرته اسمًا لا يشيخ، وصورةً لا تذبل، وحضورًا يمرّ في شعره كما يمرّ النسيم على صفحة الماء: لا يُمسك، لكنه يترك الدوائر كلها شاهدةً عليه. وظلّ أبو نواس بعد ذلك كلما ذكرها أحسّ أن حياته لا تُقاس بما عاشه من لهوٍ ومجالس، بل بما خسر من طمأنينةٍ في سبيل لحظةٍ لم تكتمل.

وهكذا انتهت الحكاية لا بانطفاء الحبّ، بل بتحوّله إلى أثرٍ خالد. لم يكن أبو نواس عاشقًا شُفي، ولا جنان امرأةً ابتسمت ثم رحلت، بل كان بينهما شيءٌ أشبه بالمعلقة الروحية: قلبٌ يطلب، وروحٌ تمنع، وشعرٌ يخلّد المسافة بينهما. فصار الحبُّ نفسه هو البطل، وصارت القطيعة جزءًا من جماله، وصار الوجع ديوانًا لا يُطوى.

وبقيت القصة، في جوهرها، حكاية إنسانٍ حاول أن يجد في امرأةٍ واحدة معنى الحياة، ثم اكتشف أن المعنى أوسع من اللقاء، وأبقى من الوصل، وأن بعض العشق لا يُكتب ليتحقق، بل ليُصبح شعرًا يعلّم القلب كيف يشتعل، وكيف يترفّع، وكيف ينجو من النسيان.